

محمود

شاكر

الرجل

والموقف

«ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس، أن يقول بحق إذا علمه».

■ هذا نص حديث شريف، استفتح به الشيخ محمود شاكر كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

وهو حديث لا يصدق على أحد بقدر ما يصدق على الشيخ شاكر نفسه إن مفتاح شخصيته يتلخص في قدرته على قول الحق، مهما كانت الظروف.

وقبل هذه القدرة هناك قدرة ثانية تتكامل معها: وهي قدرته على أن يتبين الحق قبل أن يتنبه له الآخرون.

إن تاريخ الشيخ شاكر يتلخص في أنه يدرك الحق قبل أن يدركه غيره، هذا أولاً. وفي أنه يجاهر بهذا الحق ولو سكت غيره، وهذا ثانياً.

هذا مفتاح شخصيته، وهو مفتاح يدل على أننا إزاء صنف من الرجال، يختلف عن غيره من بقية خلق الله.

فالرجل، أي رجل، لا يقاس بغزارة علمه، ولا بوفورة ماله، فما أكثر العلماء الذين يعرضون صفحات الكتب، ثم يتركون دنياهم، دون أن يدري بهم أحد، وما أكثر الناس الذين يحبون المال حباً جماً. وَيَقْنُون، ويبقى المال، ويذهب الأثر.

لقد ذكر الرسول ﷺ، أن هناك نُهَمين لا يشبعان، طالب علم وطالب مال. ولا غرابة في ذلك، فكلاهما طالب العلم وطالب المال، يغرقان في لذة شخصية، قد تصرفهما عن المواقف التي تتجاوز حدود الشخصية ومتطلباتها الفردية.

الرجل إذن لا يقاس بعلمه ولا بماله، ولكن يقاس بمواقفه. وهذا المعيار لا يفرق بين شخص وآخر. بين شخص يعيش لنفسه ويسعى نحو لذائذه، وآخر يعيش من أجل غيره، ويرتفع بمطالبه الشخصية، لترتبط بهدف ورسالة.

بين شخص يعيش ليأكل، وآخر يأكل ليعيش، كما تقول الكتب المدرسية. والشيخ شاكر هو من هذا النوع الأخير.

فهو لا يقاس بعلمه ولا بماله فهناك غيره الكثيرون ممن يحفظون النظريات ويسردون عناوين الكتب، وهناك غيره أكثر مالأ وأعز نفراً.

ولكن الشيخ شاكر هو رجل المواقف بالدرجة الأولى.

وهي مواقف تفصله عن غيره، وتتيح له من الخلود ما لا يتاح لغيره. هو يستطيع أن يتبين الحقيقة، في وقت لا يعرفها أحد أو يخشى أن يعرفها أحد.

وهو إذا تبينها جاهر بها، لا تمنعه هيبة الناس أن يقولها، مهما كان مقدار هؤلاء الناس.

التحق الشاب محمود شاكر في عام ١٩٢٦م بالجامعة المصرية، وكان الجميع فرحين بهذه الجامعة الجديدة، التي تدرس علوم الغرب ومناهج الإغريق، وكان الأساتذة يلبسون «الردنجوت» ويتبخثرون في الأروقة بين المدرجات، يرطنون باللغات، ويلوكون الأعلام الأجنبية، ويتشدقون



د. عبد الحميد إبراهيم

تاريخ الشيخ ومفناه شخصيته ينلخص في .. إدراكه للذوق والجهر به قبل غيره.

الأخرى من واقع ذلك التراث، ويخاطب قارئه ويقول: «فاقرأ الآن معي تاريخك بعين عربية بصيرة لا تغفل، لا بعين أوربية تخالطها نخوة أوربية، كما فعل أستاذنا عبدالرحمن الرافعي، غفر الله له ذنوبه، في كتابه «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر»

ويعيد الشيخ شاكر قراءة تاريخنا الحديث، من منظور هذا المنهج الأصيل، ويرى أن الحملة الفرنسية على مصر، لم تكن بعثاً ولا بداية للنهضة، كما اعتاد أن يقول المؤرخون، بل إنها قد قضت على النهضة التي بدأها علماء الأمة في أواخر القرن الثامن عشر، وأدت في نهاية أمرها إلى مايسميه الشيخ شاكر بالتفريغ الثقافي، الذي سوف ينشئ على حد قوله:

«جيلاً من تلاميذ المدارس، تتهتك علائقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية، اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، حتى يتم تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وتاريخ الغزاة ولغات الغزاة»

يقف الشيخ شاكر في كتابه عند فكرة التفريغ الثقافي: ولم يتجاوزها إلى طرح البديل، لأنه شاهد عصره يرصد ما هو كائن.

ولكن العظماء لا يوزنون بما يقولون، ولكن يوزنون بما يؤثرون، يكفيه رحمه الله أنه أدرك الطريق قبل أن يدركه غيره وأنه جاهر بالحق في وقت قد خرس فيه غيره. العظماء لا يموتون، وحين يسكت الجسد، يبعث الفكر في ثوب جديد.

قد يكون في المفارقة أن استعير كلمة الدكتور طه حسين:

«قوم يموتون وهم أحياء فتعز عنهم واصبر عليهم، وقوم يحيون وهم أموات، فاذا ذكرهم أجمل الذكرى، واستبق حبهم في قلبك، وودهم في ضميرك، وامنعهم بين الحين والحين كلمة خير ودعة وفاء».

فهل كان يدري طه حسين وهو يرسل هذه الكلمة في كتابه «نفوس للبيع» أن هناك من سيأتي ويقتبسها في تأبين ذلك الشاب المتفرد، والذي لم تمنعه هيبة الناس أن يقول الحق الذي علمه، كما أرشده الحديث النبوي.



بالمعارف الأوربية، وكان الطلبة يتباهون بالأساتذة، يسيرون على خطاهم، ويرون فيهم صورة سقراط وأفلاطون وأرسطو، قد بعثوا من جديد.

ولكن شاباً لم يصل إلى العشرين، لم يخدع بهذا الزيف، ولم يغرق في ذلك الطوفان، فهو يتجاوز تلك اللحظة التاريخية، وينظر وراء الحجاب، ويدرك أن كل هذه الطنطنة قد تصرفنا عن أصالتنا، وقد تغرس فينا عقدة «الخواجة».

ولا يكتفي هذا الشاب الصغير بأن يدرك الحقيقة، التي لم يدركها غيره من الشيوخ الكبار، بل أن يجاهر بالحق لاتمنعه هيبة أحد من أن يقول كلمته.

وتكون النتيجة أن يترك الجامعة إلى غير رجعة. كانت اللحظة عمياء أقوى من أن يتبين الناس حقيقة هذا الشاب، فوصفوه بالعناد والثبات، وعدم القدرة على التطور.

ولكن الشاب يمضي في طريقه لم يتغير، تنكر له الناس، فهاجر من مصر إلى رحاب مكة، يستلهم من الله الهداية والثبات.

وظل على موقفه عقوداً من الزمن، لم يتزحزح وهو شاب، وهو رجل، وهو شيخ، حتى وافته المنية.

وهنا نضيف خصلة ثالثة إلى شخصية الشيخ شاكر، فهو لا يقف عند معرفة الحق، ولا عند المجاهرة بهذا الحق، ولكنه يثبت عند هذا الحق ولو كان مرأ، ولا يتزحزح عنه، ولو تنكر له كل الناس.

قد يقال إن هذا تحجر وعناد صعيدي، ولكن الشيخ قد ألهمه الله معرفة الشعرة الرقيقة، التي تفصل بين العناد والثبات على الرأي، ومضى في طريقه لا يتزحزح عما يراه حقاً.

كان الجميع في الجامعة الجديدة، يسعون إلى تطبيق إنجازات الحضارة الأوربية على الواقع العربي، من خلال ما أسميته في كتابي «الوسطية العربية» بالنزعة التوفيقية، وهي نزعة تحاول أن تضع في «جراب» واحد إنجاز حضارتين مختلفتين تاريخياً وثقافياً، وتكون النتيجة في النهاية، انتصار الحضارة العالية، وضياح خصوصية الحضارة العربية الإسلامية.

ولكن الشيخ شاكر منذ حادثته يخطط له طريقاً آخر، يبدأ مسيرته من واقع التراث العربي، ويحاول التيارات